

## المعنى الحضارى لمبادرة السلام

أن من يطلع على تاريخ عالما وحضارته سيدرك أن منعطفات التحول التاريخى فى حياة الشعوب غالبا ما تبدأ بقرار غير تقليدى على الإطلاق من أحد الزعماء السياسيين الذين يملكون أن يؤثروا فى مصير أممهم فى مرحلة معينة من مراحل تاريخها. فالتطور الحضارى يقف ويتجمد إذا ما قرر القادة السياسيون الاعتماد على القرارات والأفكار التقليدية التى سبق أن تعارف عليها الناس من قبل. عندئذ تتحول الحياة السياسية وفى أعقابها الحياة الاجتماعية والاقتصادية إلى قوالب صماء ومقاييس مسبقة تعتمد على التقليد والتكرار وتتأى عن التجديد والابتكار مما قد يؤدى بالمجتمع إلى الدخول فى حلقة مفرغة من اجترار الأوهام وتمجيد الذات لعجزه عن مواكبة حركة الحضارة المعاصرة. وهذا ما كنا بصدد الدخول فيه فى عالما العربى قبل قيام الرئيس "السادات" فى نوفمبر 1977 بمبادرته التاريخية المذهلة، عندما زار القدس ووضع الحقائق عارية أمام الإسرائيليين فى عقر دارهم فى الكنيست.

لقد قام الرئيس "السادات" بالإعداد لحرب أكتوبر وشنها على الإسرائيليين لإيمانه أنها الحل الوحيد لكسر حلقة الجمود التى فرضت علينا فى منطقة الشرق الأوسط بهدف خنقنا حتى نموت حضاريا. وعندما تم النصر التاريخى أدرك العالم عمليا أن الحضارة المصرية- التى كانت الحضارة الأم لكل الحضارات- ما زالت تسرى فى كيان أبنائها الفكرى وحياتهم الوجدانية، وبذلك قضت على الفكرة التى حاول كثير من مؤرخى الغرب تأكيدها والتى تقول أن الحضارة الغربية نتيجة طبيعية لتفوق عنصرى وجنسى حتى يثبتوا فى أذهان الشعوب الأخرى استحالة تقدمها وحمية اعتمادها على الحضارة الغربية والسير فى أذيالها حتى تضمن لنفسها حدا أدنى للحضارة. وإذا فكرت هذه الشعوب يوما فى تحدى القمر الذى تمارسه الحضارة الغربية فلن تجد سوى الويل والثبور وعظائم الأمور. من هنا كان المعنى الحضارى الكبير وراء السادس من أكتوبر، أنه لم يكن مجرد انتصار جيش على آخر فى معركة ضارية، لكنه كان تأكيدا لحقيقة طالما اشتقنا إلى إثباتها عمليا، وهى أن الحضارة المصرية لم تمت وإنما كانت فى مجرد غفوة مؤقتة.

من هنا كانت ضرورة محافظتنا على كل الأبعاد القومية والعسكرية والحضارية والإنسانية للسادس من أكتوبر لأنه بالنسبة لنا يعد مولد الحضارة المعاصرة والأصيلة فى الوقت نفسه، المعاصرة لأنها استطاعت أن تهزم أحدث أسلحة العصر فى قهر الشعوب واستنزاف

طاقاتها. والأصيلة لأنها امتداد حي وعضوى للحضارة المصرية والعربية القديمة. والسادس من أكتوبر هو التطبيق العملي لنظرية "أرنولد توينبى" فى "مولد الحضارات"، وهى النظرية التى هاجمها كثير من المؤرخين المعرضين العنصريين. يرى "توينبى" أن مولد الحضارة لا يرجع إلى تفوق جنسى بشرى معين، أو إلى عوامل مساعدة وظروف ملائمة بشكل غير عادى، بل يعزى إلى ظروف قاسية بشكل غير عادى، وهذه الظروف تمثل تحديا مصيريا لمجتمع ما بحيث يتحتم عليه الاختيار بين البقاء أو الفناء، بين الوجود أو العدم. لذلك يتحفز هذا المجتمع ويحشد كل طاقاته لمواجهة هذا التحدى وخوض معركة البقاء الحضارى والمحافظة على كيانه الإنسانى. فإذا ما نجح فى مواجهة التحدى، ورجحت كفته فى صالحه، فإن هذا يمكن أن يؤدى إلى خلق الحافز القوى والمستمر لزيادة قدرته الخلاقة إلى حد كبير، وتنمية طاقاته الروحية والمادية بحيث يتبع هذا ما نطلق عليه "مولد الحضارة".

وعلى الرغم من ضرورة وجود نوع من الموهبة الخلاقة والقدرة على الابتكار واستغلال الظروف المواتية، بل وخلقها، بالنسبة للدور الذى يلعبه المجتمع الذى يواجه تحديا مصيريا مما يساعد على انتصاره، فإن "توينبى" لا يقبل، بأية حال من الأحوال، التفسير العنصرى الذى ينسب مولد إحدى الحضارات إلى التفوق الفطرى أو عبقرية جنس أو شعب معين، إنما ينسبه، إلى حد ما، إلى مجموعة الظروف التى تعتبر بمثابة التحدى، كما ينسبه. من ناحية أخرى. إلى خصائص المجتمع الذاتية التى تمد جذورها فى تاريخه بحيث تصل إلى مصادر حضارته الأولى. فإذا توافر هذان العنصران الحضاريان: التحدى المصيرى والأصالة الحضارية فإنه يحدث ما يشبه المعجزة فى التاريخ. لذلك يبدو السادس من أكتوبر من قبيل المعجزات بالنسبة للكثيرين، على الرغم من أنه حقيقة تاريخية وحضارية يمكن تفسيرها علميا. فقد كانت الظروف التى سبقت هزيمة يونيو 1967 والتي بلغت قممتها فى أثناء فترة الهزيمة نفسها بمثابة التحدى الذى يتحتم مواجهته من أجل البقاء، وفى نفس الوقت فإن خصائص المجتمع المصرى التى تمد جذورها حتى مصادر حضارته الفرعونية قد منحتة من الأصالة والصلابة، والموهبة الخلاقة، والقدرة على الابتكار، وخلق الظروف المواتية، ما مكنه من قبول التحدى وقهر كل العقبات فى سبيله. وسوف يحكى التاريخ أن السادس من أكتوبر كان خير إثبات لنظرية "توينبى" فى مولد الحضارة وازدهارها.

ويؤكد "توينبى" أن عملية الميلاد الجديد هذه قد تأكد وجودها عند مولد الحضارات المصرية والسومرية والصينية فى فجر التاريخ الإنسانى.

\*\*\*\*\*

